الأساقفة القديسون الأربعة
باسم اغريغوريوس

وهو يحوي ترجمة مفصلة للثلاثة أغريغوريوسيين بمجمع القداس

والقديس أسقف نيصا

القديس اغريغوريوس
الناطق بالإلهيات

القديس اغريغوريوس
صانع المعاجب

القديس اغريغوريوس
الأرمني

القديس اغريغوريوس
أسقف نيصا

ماليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

(١)

القديس أغريغوريوس الثاؤلوغوس

بطريرك القسطنطينية

(المعروف بالنزيزي وبالناطق بالإلهيات)

مترجم من الجزء الخامس من مجموعة :

Les Petits Bollandistes
Vies des Saints

بسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين ؟

(١)

القديس اغريغوريوس الناطق بالإلهيات

نشأته : ـ كان أبوه أسقف نزينز واسمه اغريغوريوس أيضاً، وأمه «نون» Nonne، وهما قديسان تكرمهما الكنيسة . استدرت أمه بركات السماء لأسرتها بحسناتها الكثيرة . ولم تحل محبتها للفقراء دون القيام بواجبات البر نحو أولادها ، فعرفت كيف تحافظ على أموالهم وأيضاً تزيدها بتدبيرها الحكيم . وكانت التداريب التقوية تستغرق جزءاً كبيراً من وقتها ، ولكنها كانت شديدة الحرص على القيام بواجباتها .

وكان اغريغوريوس زوجها يتبع الخزعبلات الوثنية منذ طفولته . وصار المستشار الأول لمدينة نزينز ، وكان يقوم بواجبات وظيفته بأمانة ، وكانت له كل الفضائل الأدبية التي يمكن ان يتصف بها شرفاء هذا العالم ، ولم يكن ينقصه سوى أن يكون مسيحياً . وكانت «نون» Nonne تلجأ إلى الدموع والصلوات إلى الله لكي تفوز بتحوله . واستجيب الدعاء أخيراً . فأنكر زوجها

الديانة الوثنية ، واعتمد في «نزينز» Nazianze حوالي سنة ٣٢٥ . وحرص على الحفاظ على نعمة المعمودية ، فاستحق بعد ذلك أن يعتلي كرسي «نزينز» الأسقفي ، وحكمها حوالي خمسة وأربعين سنة . ثم تنيح وعمره تسعين سنة . ونقرأ في مؤلفات إبنه تفصيل فضائله ، لا سيما حماسه وتواضعه .

وأنجب قبل أن يصير أسقفاً ثلاثة أطفال : إبنة تدعى «جورجوني» Gorgonie ، وابنين هما اغريغوريوس و «سيزير» Césaire . ولقب القديس اغريغوريوس بالناطق بالإلهيات بسبب معرفته العميقة بالدين ، وقد ولد سنة ٣٢٩ [1] في قرية «أزينز» Azianze في منطقة «نزينز» Nazianze بالقرب من مدينة قيصرية في كبادوكية (تركيا حالياً) . وقد ربّته كما ربّت اخوته أمه التقية «نون» بنفسها في التقوى وعلمتهم قراءة الكتب المقدسة .

ويُعد اغريغوريوس ثمرة صلوات أمه ، ولذلك كرسوه للرب منذ ولادته . وكان يتجاوب تجاوباً كاملاً مع العناية التي

(١) جاء في قاموس أكسفورد عن الكنيسة
The Oxford Dictionary of the Christian Church
صفحة ٥٨٧ أنه عاش من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٨٩ .

بذلها والداه لتدريبه في الفضيلة . وكانت معرفة الله هدفه الرئيسي من وراء الدراسة . وحتى ينمو أكثر فأكثر في المعرفة ، عوّد نفسه المواظبة على قراءة الكتب التقوية . وقد رأى في شبابه حلماً عجيباً رواه لنا بهذه الصورة . قال :

« بدا لي إني أرى امرأتين ذات جمال نادر ، إحداهما تمثل البتولية ، والأخرى ضبط النفس ، وكانتا تلاطفاني كإبن لهما وتدعواني إلى إتباعهما . قالتا لي : تعال معنا وسوف نرفعك إلى نور الثالوث الأقدس الأزلي » .

ومنذ ذلك الحين صارت رغبة اغريغوريوس شديدة في حياة التبتّل . ونعرف من مؤلفاته انه كان على الأخص يميل إلى هذه الحالة المقدسة ، فوصف إمتيازها ومزاياها وصفاً مطولاً . وهو يتكلم بحماس شديد عن الإلتزام بالحفاظ على نذر البتولية ، ويدعو الخت بهذا النذر موتاً ، وانتهاكاً للقدسيات ، وغدراً .

ذهابه إلى أثينا : ولما أكمل تعليمه بالقدر الممكن في مسقط رأسه ، ذهب إلى قيصرية فلسطين ، وذهب أخوه « سيزير » Césaire إلى الاسكندرية . وكانت في قيصرية المدرسة الشهيرة التي أسسها أوريجانوس ، ومكتبة تليذه القديس الشهيد « باميفيل » Pamphile الشهيرة . ومن فلسطين ذهب إلى الاسكندرية لزيارة

أخيه « سيزير » ، وقضى بعض الوقت معه ، وبعد ذلك أبحر إلى اثينا التي كانت تعتبر دائماً مركز المعارف والآداب .

لم يكن الوقت مناسباً . فقد هبت عاصفة استمرّت عشرين يوماً . وفي لحظة ما امتلأت السفينة بالماء : حينئذ دعا البحارة والرّبان ولم يكونوا عند ذاك يعترفون بأي إله ، دعوا جميعاً الرب يسوع المسيح بصوت عال ، فنجت السفينة . ولكن الماء العذب كان قد نفد ، إذ أن الأوعية التي كانوا يحتفظون فيها بالماء العذب كانت قد سقطت في البحر على أثر هزة عنيفة أثناء العاصفة . ثم تقابلوا مع سفينة تجارية فينيقية ، وكان ركابها ذوي مروءة وشجاعة فأعطوهم ماء عـــذباً . ولكن العاصفة لم تهدأ ، وفقد البحارة كل أمل . والشيء الذي كان يحزن اغريغوريوس أكثر من كل شيء ، هو أنه لم يكن قد اعتمد بعد . وكان أمله عظيماً لدرجة أن البحارة أنفسهم كانوا يشفقون عليه . وكان يصلّي إلى الله بدموع قائلاً أنه يكرّس من جديد حياته كلها ، إذا خلصه من هذا الخطر . واستجاب الله صلاته وهدأت العاصفة . بل أكثر من ذلك حدث أن كل الذين كانوا معه في نفس السفينة آمنوا بالمسيح ووصلوا بسلام إلى اثينا .

ان القديس اغريغوريوس يتكلم عن هذه المدينة بحماس .

في ذلك الحين كان هناك المعلمون الممتازون ، ومن ضمنهم الخطيب « أناطوليوس » Anatolius الذي جعله الامبراطور قسطنس حاكماً ، و « ديوفنط » Diophante الشهير مخترع علم الجبر ، و « بروهيريزيوس » Prohérésius أستاذ البلاغة الذي كان الامبراطور قسطنس قد استدعاه إلى بلاد الغال (فرنسا) ، وعندما مرّ بروما ثانية ، اعجبوا به لدرجة أن مجلس الشيوخ أقام له تمثالا كتبت عليه هذه العبارة : « من روما ملكة العالم إلى ملك البلاغة » .

صداقته مع القديس باسيليوس : وازدادت سعادة اغريغوريوس كثيراً بوصول صديقه باسيليوس . كان قد سبق تعارفهما ، ولكن صداقتهما غدت حينئذ صداقة حميمة . فأقاما معاً وكانا يتناولان طعامهما على مائدة مشتركة ، وكانا لا يعاشران من زملائهما الا أطهرهم وأهداهم . ويبدو أنهما ما كانا يعرفان سوى شارعين فقط من شوارع المدينة : الشارع المؤدّي إلى الكنيسة والمعلمين الذين يعلمون الإيمان ، والشارع الذي يؤدّي إلى المدارس العامة والمعلمين الذين يعلمون العلوم البشرية . وكانا يتركان للآخرين الشوارع التي يذهب الناس عن طريقها إلى المسارح والملاهي العالمية .

كان اهتمامهما كله مركزاً في تقديس الروح ، وكان طموحهما الوحيد هو أن يصبحا مسيحيين حقيقيين . وكانا يحملان في ذلك كل مجدهما . كانت حياتهما صارمة جداً ، وما كانا يأخذان من المال الذي ترسله لهما عائلتهما سوى القدر الضروري لشراء احتياجاتهما التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وكان الباقي يوزّع على الفقراء . فكانا هادئي النفس ، ولم يكن الحسد ليسبب لهما اضطراباً : الخير الذي يحدث للواحد كان يسبب فرحاً وسعادة للآخر . وكان الواحد يحث الآخر على فعل الخير . وفي غيرة مقدسة كانا يجتهدان في التفوّق الواحد على الآخر في ممارسة الصوم والصلاة والتداريب التقوية المختلفة .

كانا رائدين من جهة التقوى ، كانا أيضاً أولين في العلوم والآداب . وأثارت تلك المعرفة الكثيرة وتلك الفضائل الإعجاب لدرجة أنه حيثما كان الناس يتكلمون عن اثينا وعن معلميها الماهرين ، كانوا يذكرون الصديقين العجيبين باسيليوس واغريغوريوس ، اغريغوريوس وباسيليوس .

وقد أضافا إلى هذه المعارف الثمينة ، معرفة ضرورية أخرى ، هي معرفة الناس . وجاء الامبراطور يوليان إلى اثينا سنة ٣٥٥ ، وتعرّف عليه القديسان باسيليوس واغريغوريوس هناك ، لأنهما

درسا معه لبعض الوقت الكتب المقدسة والآداب . وبالرغم من تنسكّره ، وبعده عن الناس كانوا يستشفون من منظره ، اضطرابه النفسي .

وتوقع القديس اغريغوريوس فى تلك الظروف سوءاً وصرّح بأن الامبراطورية كانت تغذى وحشاً فى أحشائها ؛ وكان يبنى تشاؤمه هذا على شيء عجيب مبهم يلاحظه الناس على ذلك الأمير . فكانت مشية يوليان مزعزعة ، يهزّ أكتافه ، ويحرك رأسه ، وكانت عيناه تائهتين وقلقتين ؛ يتكلم ويضحك كثيراً ؛ وكان لسانه السريع لا يقوى دائماً على متابعة أفكاره ؛ فكان حديثه فى بعض الاحيان متقطعاً ، وصوته متردداً ؛ وكثيراً ما كان يسأل أسئلة ويردّ ردوداً لا معنى لها أو تنقصها الصحة .

مغادرته أثينا : وأخيراً حضرت اللحظة المؤلمة . فقد عزم القديسان اغريغوريوس وباسيليوس أن يغادرا اثينا بعد الدراسة ويفترقا . وتأثرت كل المدينة . كان المعلمون والتلاميذ يحيطون بالصديقين ويستحلفونهما أن يبقيا فى المدينة . وشرح باسيليوس أسباب رجوعه إلى وطنه فى بيان جعلهم يدعونه يذهب بالرغم منهم ؛ ولكنهم استبقوا اغريغوريوس والزموه قبول وظيفة

أستاذ البلاغة . ولم يكن ذلك لوقت طويل ، لأنه بعد قليل انسحب فى غير ضجيج لكى يذهب إلى صديقه فى كبادوكية .

ووصل القسطنطينية فى نفس الوقت الذى وصل فيه أخوه الطبيب إلى الاسكندرية . وكانت شهرة « سيزير » أخيه حينئذ عظيمة جداً ، حتى أن مستشارى القسطنطينية عرضوا عليه لكى يستبقوه فى تلك المدينة وكفلوا له مرتباً كبيراً وزوجة ممتازة ووظيفة عضو فى مجلس الشيوخ . وبناء على طلبهم أعطاه الامبراطور قسطنس خطابات تخول له أن يكون من مواطنى المدينة ، وعينه طبيبه الأول . ومع ذلك استطاع اغريغوريوس أن يقنع أخاه بأن يرجع معه إلى مسقط رأسيهما ويكرس فنه له .

أما اغريغوريوس ، فقد أراد أشخاص كثيرون أن يقنعوه بالمعيشة فى القسطنطينية . كانوا يقولون له يمكنك أن تنضمّ إلى هيئة المحامين أو تدرّس البلاغة ، وسوف تكون لك بذلك فرصة لإظهار مواهبك ، فتتقدم سريعاً فى العالم . ولكن لم تستطع هذه الأحاديث أن تبهر القديس ؛ وكان ردّه . أنه ينظر إلى أبعد من ذلك ، وأن هدفه ألا يعيش سوى لله .

عماد القديس وتجديد حياته : وكان أول مافعله عند وصوله إلى نزينز أن يتقبل سرّ العماد من يد والده . ومنذ ذلك الحين

كرّس نفسه كلية لخدمة الله . وقد قال : « لقد أعطيت كل ما لى إلى الذى أخذته منه ، وقد أخذته وحده نصيباً لى ، وكرّست له كل أموالى ومجدى وصحتى ولسانى ومواهبى . وكل الثمر الذى نلته من هذه الميزات يكمن فى غبطتى باحتقار كل هذه الأشياء من أجل محبة الرب يسوع المسيح » .

وإذا كان قد مات عن العالم وعن كل مسرّاته ، لم يكن يتحمس إلاّ من أجل الأمور الإلهية . كان طعامه الخبز والملح . وكانت ملابسه رديئة ، وكان يفترش الأرض الجرداء . كان يشغل نفسه أثناء النهار بأعمال مضنية ، وكان يقضى جزءاً كبيراً من الليل فى الصلاة أو فى التأمل فى الكلمات الإلهية . وبدت له البلاغة الدنيوية التى كان قد درسها لمدة طويلة ، وكذلك الأموال ، كأشياء أخرى بها الاحتقار . وقطع الدراسات لكتب المعارف الدنيوية . وكتب فن البلاغة أيضاً ، تركها كما يقول هو نفسه فعبث بها الدود والعث . وما ضروب الكرامة فى نظره إلاّ أحلام باطلة تُغرى الناس ، كان يحذر من الحفر التى يحفرها الطموح تحت أقدام عبيده لم يُر فيه شىء يدل على تعلقه بالعالم وكأنه خارج العالم ، وليس له من حديث سوى حديث السماء .

ولم يمنعه ذلك من الاهتمام بعض الوقت بإدارة منزل والده

وأهماله . وقد اختبر صبره بأمراض قاسية . وكان اضطراب صحته نتيجة تقشفاته ودموعه التى كان باستمرار يسكبها بغزارة ، حتى أنها كانت تمنعه أحياناً من النوم . كان يتهلل فى أسقامه التى تعطيه الفرصة ليمارس النسك وانكار الذات . كان يندد بمرارة بالضحك الكثير أيام شبابه ، الذى كان مردّه إلى طبعه المفرط فى المرح . ومن كثرة معاركه ، وصل إلى ضبط حركات الغضب الغير إرادية ، وصار مالكاً لنفسه لدرجة أنه أصبح لا يبالى بكل الأمور التى كانت فيما مضى أكثرها تقبلا عنده . ولقد جعلته صدقاته المستمرة أفقر الناس ، وذهبت أمواله لكل الذين فى حاجة كمثل الميناء لكل الذين فى البحر . وليس أحبّ إليه من العزلة والصمت . كان يبتن للاضطرابات التى تجرّها الرغبة فى الكلام ، ولتلك العادة الرديئة التى كانت لبعض الناس ، يريدون أن يجعلوا أنفسهم سادة الجنس البشرى .

مضى زمن طويل والقديس اغريغوريوس يرغب فى قطع كل ارتباط مع الناس ، لكى يتفرّغ بأكثر حرّية لخدمة الله . وحتى يشبع هذه الرغبة ، ذهب سنة ٣٥٨ لينضم إلى القديس باسيليوس الذى كان يحيا حياة التوحّد ، بالقرب من ترعة « ايريس » Iris فى مقاطعة « بنط » Pont . كانت الأسهار

والاصوام والصلوات مصدر لذة بالنسبة لهذين الرجلين العظيمين، وكان يضيفان إلى ذلك عمل الأيدى وترتيل المزامير ودراسة الكتاب المقدس .

رسامته قسا : ولم يبق القديس اغريغوريوس فى الوحدة سوى الوقت الكافى الذى يحمله يتذوق حلاوتها . ثم طلبه أبوه الذى كان عمـــره أكثر من ثمانين سنة ، ليساعده فى إدارة أبروشيته . وحتى يكون عوناً له ، رسمه قساً بالرغم منه ، فى الوقت الذى كان لايتوقع فيه ذلك . وقد أتبع هذه الطريقة لأنه كان يعرف موقف ابنه تجاه الكهنوت ، ويعلم الصعوبة التى كان لابد من مواجهتها لاقناعه بأن يتقبل وضع الأيدى . ويذكر المؤرخون عامة هذه الرسامة على أنها تمت فى يوم الميلاد من سنة ٣٦١ .

وقد شكا القديس من هذا القهر . ولم تسكن له تعزية بسبب رسامته ، فهرب وذهب لمقابلة صديقه القديس باسيليوس لكى يشكو له الألم الذى يحزنه . كان الكبشيرون لايوافقونه على تصرفه فكان بعض الناس يقولون أن هروبه يرجع إلى الكبرياء والعناد أو إلى سبب آخر مماثل . وسرعان ما حكم القديس اغريغوريوس على نفسه ، واستوحى تأملات أخرى من عقوبة يونان النبى إذ

عوقب لأنه عصى أوامر الله ، فرجع إلى نزيانز وكان قد غاب عنها لمدة عشرة أسابيع، ووعظ بها لأول مرة فى يوم عيد القيامة .

وتبع هذا المقال مقال ثانى بعنوان «دفاع» برر فيه القديس هروبه . ان مادة هذا المقال هامة جداً . وفيه يتكلم القديس اغريغوريوس عن كرامة الكهنوت وما له من الخطر ، وعن واجبات الكهنة ، وعن القداسة المطلوبة للتقرب من الهيكل ، وللوقوف أمام الله الذى هو الطهارة ذاتها . كذلك يتكلم عن صعوبة توجيه الضمائر ، واعطاء الأدوية المناسبة لمختلف امراض الأرواح ، وعن العلم اللازم للكهنة المقدسين حتى يستطيعوا أن يقطعوا شكوك المؤمنين ويدحضوا الضلالات . ويخرج من هذه التفاصيل جميعها أنه كان محقاً فيما توجسه من خوف وهو يرى الحمل الذى هموا أن يحملوه إياه ، وأنه كان يلزمه على الأقل أن يستعد لبعض الوقت للكهنوت بالصلاة والتوبة والتأمل . ويضيف إلى ذلك قوله : « أن خشية الحساب الرهيب الذى يطلبه الله عن قيادة الأرواح كان حقاً ما جعلنى أرفض هذا العمل لبعض الوقت ؛ ولكن ، مثل يونان آخر ، عدت لكى أكمل واجبات الدعوى التى دعيت اليها . وأرجو أن تسندنى الطاعة وسط الأخطار وتكون سبباً فى أن يعطينى الله النعم التى أحتاج إليها » .

حكمته فى مساعدة والده الأسقف : فى المقال الذى تكلمنا عنه هنا ، يمدح القديس اغريغوريوس كنيسة نزيز من أجل وحدة أعضائها وتعلقهم بالإيمان الصحيح . وللأسف قد اضطرب حبل هذه الوحدة عند نهاية عهد يوليانوس . فقد وقّع أسقف نزيز (والد القديس) على خطاب كتبه أتباع الاريوسيين السرّيين ، كتب بعبارات مشكوك فى صحتها وفعل ذلك من باب المجاملة لبعض الأشخاص الذين كان يرجو أن يدخلهم إلى حظيرة الكنيسة . ولكن هذا المسعى المشهور قد أغثر أتباعه ، وقد رفض اكثرهم حاساً ، وبالأخص الرهبان ، أن يتجاوبوا معه .

وإذ رأى إبنه العواقب الوخيمة التى عسى أن تكون وراء هذا الانقسام ، جعل كل همه فى وأده منذ البداية ، واستطاع ان يقود الناس بمهارة حتى صالح تماماً الرعية مع الراعى . وجمع فى ذلك بين الحزم والوداعة ، حتى انه لم يعطِ بالاً لضلالة أولئك الذين جرّوا والده إلى الخطأ حتى انتزعوا منه توقيعه مما جعل الناس يشكون فى صحة إيمانه . وقد ألقى خطاباً رائعاً بمناسبة اعادة السلام فى كنيسة نزيز .

وبعد وفاة يوليان ببعض الوقت وضع القديس كتابين ضد هذا الأمير المرتد عن الإيمان . وهو يتكلم فيهما بنفس القوة التى

عوّل عليها الأنبياء عندما كانوا ، بأمر الله ، يوبخون الكفرة من الملوك على جرائمهم . وكان هدفه الوحيد هو الدفاع عن الكنيسة ضد الوثنيين ، بكشفه ما كان عليه أكثر معتنقيه خطراً من الظلم والضلال والنفاق .

رحيل أخيه وأخته : وفى نهاية الأمر شهد القديس اغريغوريوس أخاه سيزير Césaire يرحل من العالم ، وتعزى انه لا يحيا إلا لله ، اختطفه منه الموت فى بداية سنة ٣٦٨ ودفن سيزير فى نزيز ، وأقرّت الكنيسة تكريمه . وقد ألقى القديس اغريغوريوس خطاباً يرثيه فيه ، ويشير فى التنويه بفضائله انه وسط الكرامات ، كان ينظر دائماً إلى فضل كونه مسيحياً كأنه أول الكرامات وأن فى ذلك أبعد كل الالقاب .

وقد ألقى القديس اغريغوريوس أيضاً خطاباً يرثى فيه القديسة « جورجونى » Gorgonie أخته التى توفيت بعد ذلك بقليل ، وفيه يكشف عن حرارة صلاتها ، وتواضعها . وطاعتها واحترامها للكهنة وللأمور المقدسة ، وكرمها نحو الفقراء ، وتقشفاتها ، وحماسها من أجل تربية أولادها الخ . . . ويعتبر القديس فيه شفاء الشلل الذى أصابها ، أثناء صلاتها أمام المذبح ،

أمراً معجزياً ، وكذلك حفظ حياتها بعد الجروح الخطيرة التي أصيبت بها أثر سقوطها من عربتها .

الأسقفية : وفي سنة ٣٧٢ انقسمت كبادوكية بأمر الامبراطور إلى مقاطعتين . فكانت عاصمة المقاطعة المسماة المقاطعة الثانية هي مدينة « تيان » Tyane وقد سبب هذا الانقسام في اضطراب الكنيسة . كان « أنثيم » Anthime أسقف « تيان » يزعم لنفسه الرئاسة على كبادوكية الثانية . وقد اعترض القديس باسيليوس على هذا الزعم ، وطالب بحقه كرئيس أساقفة قيصرية ، واحتج بأن التقسيم المدني لا يحرمه من صفته كأسقف كبادوكية . ولكن محبته للسلام جعلته فيما بعد يقدم بعض التنازلات ، فوافق على اعتبار كرسي « تيان » كعاصمة كبادوكية الثانية .

وفي إبان النزاع ، اختار القديس باسيليوس صديقه اغريغوريوس ، أسقفاً على مدينة « سازيم » Sasimes ، التي كانت في المقاطعة موضوع النزاع . وعارض اغريغوريوس هذا الاختيار . ولكنه نزل عن رأيه أخيراً لسلطة أبيه مجتمعة مع سلطة صديقه . وقد رسمه القديس باسيليوس في قيصرية في منتصف سنة ٣٧٢ . وبعد الاحتفال رجع إلى نزيانز لينتظر فرصة مناسبة لدخول الكنيسة ، ولم تسنح هذه الفرصة أبداً . فقد منعه

« أنثيم » Anthimes من الدخول إلى « سازيم » Sasimes ، وكان أسقف « تيان » هذا قد كسب الحاكم الجديد لصالحه ، وكان مسيطراً على كل الوسائل . وإذ نسب القديس باسيليوس إلى القديس اغريغوريوس بأنه ينقصه الشجاعة ، رد عليه الأخير بأنه ليس على استعداد للتطاحن من أجل كرسي الأسقفية .

على أنه قد حكم إبروشية والده الذي كان مسناً وتوفي في السنة التالية . وقد قام بنفسه بإلقاء خطاب التأبين في جنازة هذا الشيخ الوقور ، في حضور القديس باسيليوس والقديسة « نن » Nonne والدته ، ولم تمكث على قيد الحياة إلا قليلا بعد موت زوجها .

وكان في نيته بعد موت والده ، أن يحيا حياة الوحدة ، تلك الحياة التي كانت دائماً موضوع أحر رغباته ، ولكن الناس ضغطوا عليه كيلا يترك كنيسة نزيانز ، فوافق على العناية بها إلى أن يعين أساقفة المقاطعة راعياً جديداً .

توحد القديس في سلوكية : وإذ كان هذا الأمر يطول جداً ، وكانت صحته من جهة أخرى مضطربة جداً ، اعتزل في سنة ٣٧٥ في سلوكية عاصمة ايزوريا Isaurie . وقضى خمس سنوات في هذه المدينة .

وكانت وفاة القديس باسيليوس فى سنة ٣٧٨ ضربة قاسية بالنسبة له . وقد ألف ، تكريماً لصديقه ، اثنى عشر خطاباً . وقد ألقى خطاباً عن سيرته بعد بضعة سنين أى سنة ٣٨١ أو سنة ٣٨٢ .

وإذ توقف الاضطهاد بسبب موت الامبراطور فالنس Valens الذى هلك بائساً فى سنة ٣٧٨ ، أعيد أخيراً السلام إلى الكنيسة . وبحث الأساقفة سبل اصلاح الفساد الذى صنعته الهرطقة ، ولهذا الغرض عقدوا عدة اجتماعات ، وقرروا إرسال بعض العلماء الغيورين إلى المناطق التى نال فيها التعليم محنة قاسية . وبين كل الكنائس ، لم يكن أسوأ حالا من كنيسة القسطنطينية التى كانت تئن منذ أربعين سنة تحت حكم الأريوسيين الطغاة . وقد ظل فيها المؤمنون القلائل الذين تبقوا بغير راع وبدون كنيسة أيضاً لمدة طويلة . بعد ذلك توجهوا إلى القديس اغريغوريوس وكانوا يعرفون مقدار علمه وبلاغته وتقواه ، واستحلفوه بالحاح أن يهب لمعونتهم . ودعوا أساقفة كثيرين للانضمام إليهم ، حتى يتأكدوا من تحقيق مطالبهم .

وظلت هذه الالتماسات كلها بدون جدوى بعض الوقت ، فلم يكن هناك شىء يستطيع أن يخرج القديس اغريغوريوس عن عزلته فى سلوكية ، حيث كان يعيش فى حالة تجرّد كامل من العالم .

ولكنه اضطر أخيراً أن يرضى . وحضر إلى القسطنطينية فى سنة ٣٧٩ ليرأس هذه الابرشية ، ولو أنه لم يكن من أبنائها . واستقبلوه أولا استقبالا سيئاً . فإذ كان أهالى تلك المدينة محبين للجاه ، احتقروا الرجل الذى نال منه السن ، ذلك الأصلع ذا الوجه الذى ارتسم عليه الاجهاد بفعل الدموع والنسك ، اللابس الملابس الخشنة ، وتبدو عليه فى كل شىء إمارات الفقر المدقع . وجعله الأريوسيون موضع استهزائهم : فأهانوه وشوهوا سمعته أيضاً بافتراءاتهم . وبات الاضطهاد عاماً ، فكان الكبار مثل عامة الشعب ، يعاملون رجل الله بأسلوب غير لائق مطلقاً ، ولكنهم فى ذلك لم يأتوا بشىء سوى إعطائه الفرصة لكى يكتسب لقب « المعترف » المجيد .

وأقام القديس اغريغوريوس عند بعض أقاربه فى القسطنطينية وكان الأرذ كسيون يجتمعون فى بيتهم لكى يسمعوه . وبعد بعض الوقت ، حوّل هذا البيت إلى كنيسة ودعاها باسم « أناستاسية » أو قيامة ، لأنه هناك بعث الإيمان القويم إلى الحياة ، بعد المعاناة من الضغط فى هذه المدينة حتى ذلك الوقت ، ونقرأ للمؤرخ « سوزومين » Sozomène أن اسم « أناستاسية » قد أُطلق على هذه الكنيسة بمعجزة . يقول هذا الكاتب أن امرأة حامل سقطت

هناك من الدور العلوى فاتت ، ثم قامت حية بفاعلية صلوات المؤمنين المجتمعين . وحوالى سنة ٤٦٠ ، كما يروى المؤرخ « تيودوريه » Théodoret ، وضعوا فى الكنيسة جسد القديسة أفاستاسية البتول الشهيدة ، بعد أن نقلوه من « سيرميخ » Sirmich إلى القسطنطينية . ويلزم ألا نخلط بين هذه الكنيسة وبين كنيسة أخرى تحمل نفس الاسم، كانت فى أيدى « النوفاتيين» les Novatiens ، فى عهدى قسطنس ويوليانوس الكافر كما يروى ذلك سقراط Socrates .

وكان القديس يواظب على التعليم فى كنيسته الصغيرة ، وكان يرى بفرح أن عدد سامعيه يزداد يوماً بعد يوم . واجتمع الأريوسيون والأبوليناريون مع هراطقة آخرين مختلفين يحاولون أن يعرقلوا نجاح خطبه، فيفترون عليه بادعاءات فظيعة، ويلجأون أيضاً إلى العنف . فكانوا يطاردونه فى الشوارع ويرمونه بالحجارة ، ويقدمونه للمحاكمة كأنه مشاغب يؤلب الشعب . وكان القديس يتحمل فى صبر كل هذه المعاملة الشريرة . وكان يقول لنفسه : « صحيح أن جانب الهراطقة هو الأقوى ، ولكنى أجاهد من أجل إحقاق الحق، وأنهم إذا كانوا يمتلكون الكنائس

فإن لى الله بجانبى . فلا يفتخرون بعد لأن الشعب فى جانبهم ، أن الملائكة معى يحرسوننى ويدافعون عنى » .

كان الراعى القديس يحيا حياة الوحدة التامة ، لم يكن يقوم أبداً بأية زيارات ، إلا إذا اضطرته الضرورة إلى ذلك ، يكرس الوقت الذى لم يكن يقضيه فى وظائفه الكهنوتية للتأمل . ولم يكن يقتات إلا بالخبز وبعض الأعشاب المصلحة بقليل من الملح . وتظهر على خديه آثار الدموع التى كان يسكبها بصفة شبه مستمرة . كان يتوسل ليلا ونهاراً إلى الله أن يرحم رعيته . ولم يسع كل الذين كانوا يسمعونه إلا أن يتعجبوا من علمه العميق ، ومن الموهبة النادرة التى جعلته يصّير الحقائق المعنوية ملموسة ، معبراً عن نفسه تعبيراً واضحاً بديعاً . وإذ استأنس الهراطقة والوثنيون رويداً رويداً ، ذهبوا ليستمعوا إليه على سبيل الفضول ، وبالرغم من آرائهم المسبقة عنه ، اضطروا أن يعترفوا بسمو استحقاقه . وأصبحت نتيجة مقالاته ملموسة بالاكثر يوماً بعد يوم . فازداد عدد المؤمنين أكثر فأكثر . وفتح اتباع الضلال عيونهم ، يتعجلون العودة إلى حضن الكنيسة .

وكان هناك أمر واحد يحزن القديس : وهو التصفيق الذى يصاحب سماع مقالاته ، فكان يخشى أن ينال سم المجد الباطل من

قلبه ، وجعلته هذه الخشية لا يتكلم جهراً إلا بشيء من الاستحياء والحرج . وما كان أحد يأخذ عليه مطلقاً مدحه للعظماء . فهدف مقالاته الوحيد هو شرح الإيمان القويم وتثبيته، واصلاح مافسد من الأخلاق. كان يقاوم بشدة عادة النزاع حول المسائل الدينية ، وكانت منتشرة جداً في ذلك الوقت في القسطنطينية . وبحسب رأيه ، ان طريق الخلاص مغلق أمام كل الذين يتملكهم روح النزاع . ولا يمكن للمرء أن يذهب إلى السماء بغير حفظ وصايا الرب . فيلزم لذلك الحرص على إداء الصدقة ، وممارسة الضيافة ، وزيارة المرضى وخدمتهم ، وأن نصلي ونئن على خطايانا ، ونخضع حواسنا ، ونضبط ثورات الغضب ، ونصون على الدوام لساننا ، ونقمع شهوة الجسد .

واجتذبت فضائل القديس اغريغوريوس ومواهبه عدداً كبيراً من الناس حوله . فترك القديس (جيروم) ايروليموس St Jérome صحارى سوريا لكي يحضر إلى القسطنطينية ، واصطف ضمن تلاميذ القديس ، ودرس الكتاب المقدس تحت اشرافه . وكان يفخر بأنه يتتلمذ على يد مثل ذلك المعلم ، كما نرى ذلك في كتاباته .

وحرك النجاح العجيب لأعمال القديس اغريغوريوس حسد

ابليس وجنوده . وكان من هؤلاء الأخيرين رجل مسيحي زائف يشتغل بالفلسفة ، هو « مكسيم » Maxime الشهير المولود بمدينة الاسكندرية . هذا الماكر المملوء من عدم الحياء والكبرياء الذي تمتاز به شيعته ، ذهب إلى القسطنطينية حيث استطاع أن يخفي بريائه الاستعلاء الذي كان يأكل صدره ، ورذائله الاخرى أيضاً . واقنع أولا بعض الاشخاص . ووقع القديس اغريغوريوس نفسه في شراكه فمدحه في سنة ٣٧٩ .

ربح هذا الذئب المتنكر في شكل حمل عطانيين كثيرين وكاهناً شريراً ، وبعد ذلك جعلهم يرسمونه سراً أسقفاً على القسطنطينية . ووضع عليه الأيادي بعض الاساقفة المصريين الذين كانوا قد حضروا منذ وقت قصير لهذا الغرض . وأثارت رسامته غير القانونية كل العالم . وكتب البابا « داماز » Damase خطاباً يعرب فيه عن الألم الذي تسببه له مثل هذه الجريمة ، ويعلن فيه أن اختيار مكسيم يلزم أن يُعتبر لاغياً .

وأظهر الامبراطور تيودوسيوس الكبير أيضاً اشمئزازه ضد الدخيل ، وكان الامبراطور في ذلك الحين في تسالونيكي . ولما حضر إلى القسطنطينية ، عرض على « ديموفيل » Démophile هو أسقف أريوسي ، إما أن يقبل تعليم نيقية ، وإما أن

يخرج من المدينة . فقرر أن يخرج من المدينة . ولما رأى الامبراطور ثيودوسيوس القديس اغريغوريوس، أظهر له آيات تقديره ومحبته ، وقال له معانقاً أن المؤمنين القويمين يطلبونك أسقفاً عليهم ، واؤكد لك أن اختيارهم يتفق جداً مع رغباتي . وبعد وصوله ببضعة أيام ، رفع الكنائس من الاريوسيين . وسلم القديس اغريغوريوس كنيسة القديسة صوفيا التي كانت تقبعها كل الكنائس الأخرى .

رسامته بطريركاً على القسطنطينية

أثناء الاحتفال، طلب الشعب بصوت واحد أن يصير القديس اغريغوريوس بطريركاً على القسطنطينية . وكان الصياح الذي يسمع من كل جانب يسبب نوعاً من الاضطراب . فأوقف القديس ذلك قائلاً أنه في الوقت الحاضر يلزم الا يفكر أحد في شيء آخر غير شكر الرب لإعادته الإيمان القويم . وكان التواضع الذي أظهره القديس في هذه المناسبة موضع اعجاب الامبراطور .

وكانت هناك صعوبة بالنسبة لكرسي القسطنطينية . فما كان يمكن شغله إلا بعد أن يقرر مجمع أنه شاغر، ويعلن إلغاء رسامة « ديموفيل » وكذلك مكسيم . ولحسن الحظ كان أساقفة كل الشرق مجتمعين في القسطنطينية في ذلك الوقت ، (سنة ٣٨١) ،

وأن البطريرك ميليس الانطاكي كان يرأس المجمع . وقد وقف الآباء بناء على التماسه ، إلى جانب القديس اغريغوريوس النزينزي ورسموه بصفة قانونية بطريركاً على القسطنطينية دون النظر إلى الدموع التي كانت تنهمر من عينيه بسبب تواضعه .

ولما توفي القديس ميليس أثناء انعقاد المجمع ، رأس القديس اغريغوريوس جلساته الأخيرة . وبذل كل ما في الوسع لكي يعيد السلام إلى كنيسة أنطاكية التي كانت مضطربة بسبب الانشقاق .

وزاد ذلك أعداءه : وحاولوا أن ينالوا من كرامته ، ولم يكتفوا بذلك ، بل حاولوا الاعتداء على حياته . وذات مرة ، كلفوا أحد القتلة أن يخلصهم من ذلك الرجل الذي كانوا يبغضونه بغضاً شديداً . وسمحت السماء بألا تساعد الظروف غضبهم كما كانوا يرغبون ، إذ قدم القاتل واقترب من القديس والدموع تنساب من عينيه ، وهو يقرع صدره معترفاً بجريمته . فرد عليه القديس اغريغوريوس قائلاً : « ليغفر لك الله ذنبك . فإن صلاحه الذي حفظني يتطلب أن أعفو عنك . انك بين يدي الآن بسبب جريمتك : ولكني لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً ، وهو أن تتنكر لهرطقة وتهب نفسك باخلاص لله » . كانت هذه الوداعة

مدعاة لأن يربح الاسقف القديس أتباعاً كثيرين ، حتى من الأريوسيين . كانت الرقة التي يعامل بها أشد الناس عداوة له ، يقرها الجميع ما عدا بعض المؤمنين الذين كانوا ينقادون وفقاً لثورة الحماس غير الحكيم .

وعندئذ وصل أساقفة مقدونية إلى المجمع . وعارضوا انتخاب القديس ، بحجة إنه لا يتفق والقوانين التي تمنع نقل الأسقف من أبروشية إلى أخرى . فرد القديس بهدوء بأن القوانين المقدسة قد فقدت صلاحيتها في الشرق بسبب عدم اتباعها ، وهذا كان أمراً معروفاً ، ثم أضاف بأن تلك القوانين لا تنطبق عليه ، إذ أنه لم يجلس على كرسي « سازيم » وأنه لم يحكم أبداً أبروشية تزيد بصفته أسقف رسمي . وإذ رأى أن هذه الأسباب ليس لها أي أثر ، وأن العقول كانت مشحونة جداً ، صرخ وسط المجمع قائلا :

« إذا كان انتخابي يسبب كل هذه الاضطرابات ، فإني أوافق على أن يكون لي نصيب يونان ، فيرموني في البحر لكي تهدأ العاصفة ، ولو أني لم أهيجها . ولو صح عزم الجميع أن يقتدوا بي ، لتمتعت الكنيسة ، بعد وقت قصير بسلام عميق . إني لم أرغب أبداً في أن أصير أسقفاً ، وإذا كنت أسقفاً ، فذلك بالرغم مني . إذا

كنتم ترون أنه من الأفضل أن أسحب ، فإني مستعد أن أعود إلى وحدتي ، حتى تستطيع كنيسة الله أن تصبح أخيراً هادئة . وأهيب بكم أن توحدوا جهودكم لكي يجلس على عرش القسطنطينية شخص فاضل لديه الحمية من أجل الدفاع عن الإيمان » .

وبعد أن تكلم كذلك ، خرج من المجمع مسروراً جداً لأنه تخلص من حمل ثقيل جداً . وتعجب الأساقفة جداً من سلوكه ، ولكنهم كانوا ضعفاء إذ قبلوا استقالته على الفور .

وبعد خروجه من المجمع ، توجه القديس اغريغوريوس إلى القصر . وإذ خضع عند الامبراطور وقبل يديه قال له : « جئت يا سيدي ، ليس بقصد طلب الأموال والابعاد لي أو لأصدقائي ، ولا لكي التمس سماحتكم نحو الكنائس ، جئت لأطلب منكم السماح بالانسحاب . أنت تعرف إني وليت بالرغم مني عرش هذه المدينة . وأنكرني حتى أصدقائي ، لأني لا انظر إلا إلى مطالب السماء . إني استحلفك أن تقبل إستقالتي ، فتضيف إلى مجد انتصاراتكم ، مجد إعادة الوحدة والوفاق في الكنيسة » .

وقد تأثر الامبراطور جداً من هذا السمو الروحي ، وبألم عديد منح الأسقف القديس ما كان يطلبه في حماس .

وقد ودع القديس اغريغوريوس الشعب بخطاب بديع ألقاه في الكنيسة الكبيرة حضره آباء المجمع وعـــدد لا يحصى من الشعب . وفيه يوازن بين حالة كنيسة القسطنطينية عندما حضر إليها وبين الحالة التي يتركها فيها ، ويشكر الله على إعادة الإيمان المستقيم ، وعرض انه تصرف منذ انتخابه بعزوف تام عن أية مصلحة شخصية ، وانه لم يمتلك لنفسه شيئاً من إيرادات الكرسي الاسقفي ، وفي هذا المقال يأخذ القديس على المدينة حبها للاحتفالات وتعظم المعيشة ، ولما كانوا يتهمونه بأنه يبالغ جداً في بساطة مظهره وأنه لا يعتني ببهاء وظيفته ، دافع عن نفسه بهذه الكلمات :

« ما كنت أعرف أنه من واجبي أن أنافس القناصل والحكام وقواد الجيش في الفخامة ، هؤلاء لا يعرفون كيف يستعملون أموالهم سوى في مظاهر العظمة الدنيوية . كنت أنكر الوصول إلى استخدام مال الفقراء لأجل الأطعمة الممتازة ، وركوب الخيول المطهمة ، والانتقال في عربة فخمة والصرف على جمع من الخدم . فإذا كنت بتصرفي بأسلوب آخر ، قد أسأت إليكم ، فإن الخطأ قد وقع ، وأرجو أن تغفروه لي » .

وأنهى مقاله بطلب السماح من كنيسته المحبوبة « كنيسة القيامة » (أناستاسيه) ، التي يدعوها بمجده وإكليله ، والكنائس

الأخرى في المدينة ، والرسل القديسين الذين يكرّمون فيها ، وعرشه الأسقفي ، وإكليروسه ، والرهبان ، وكل خدام الله ، والامبراطور ، وكل البلاط ، والشرق والغرب ، والملائكة الموكلين بكنيسته ، والثالوث الأقدس المكرم فيهـــا . ثم أضاف قائلاً :

« يا أولادي الأعزاء ، أحفظوا وديعة الإيمان ، وتذكروا الحجارة التي رمونني بها لأني كنت أعمل من أجل غرس التعليم الحق في قلوبكم » .

ولكن المؤمنين وبالأخص الذين ربحهم أولا للمسيح ، كان لا يمكن تعزيتهم . كان قد سبق لهم أن أظهروا دلائل تعلقهم الشديد به ، وقد تألموا من جراء اضطهادات مختلفة من أجـــل محبتهم له . فتبعوه باكين وهم يستحلفونه أن يبقى معهم . وأشفق القديس اغريغوريوس عليهم ورقّ لدموعهم ، ولكن أسباباً عليا أرغمته على تنفيذ خطته . وإذ عاد إلى نفسه ، شعر بفرح عظيم ، كما قال بعد ذلك إلى أحد أصدقائه :

« انه لا يمكنني أن أقدر بما فيه الكفاية المزايا التي أعطاني إياها أعدائي بحسدهم ، لقد نجوني من نار سدوم بتخليصهم إياي من أخطار الاسقفية » .

وقبل أن يقدم إستقالته ، كان قد كتب وصيته ، وهى موجودة حتى الآن ، وعليها توقيعات ستة أساقفة وكاهن واحد ، وقد اتبعت فيها الإجراءات المنصوص عليها فى القانون الرومانى . وفيها يؤكد القديس إعطاء كل أمواله الحقيقية والشخصية للكنيسة وللفقراء نزينز . والقليل الذى يحتفظ به لكى يعيش منه ، تركه لبعض أصدقائه وخدامه المحتاجين .

+ + +

العرش الخالى

اننا نعجب من المسلك الذى اتبع تجاه القديس اغريغوريوس عندما نتذكر كل ما صنعه فى القسطنطينية . فبقوة أخرج من الأريوسية الجزء الأكبر من سكان هذه المدينة . لقد انتصرت وداعته وصبره على عناد الهراطقة . لم يرد أبداً أن يستخدم سلطته فى عقابهم جزاءً لكل الاضطهادات التى أثاروها ضده ، وكان يدعو المؤمنين إلى الاعتدال فى معاملتهم . فكان يقول لهم ان الانتقام ممنوع على تلاميذ الرب يسوع المسيح . وأنه يلزمهم أن يتحملوا بصبر ، وأن يقدموا دائماً الخير عوضاً عن الشر .

كان لابد أن يتبع تقويم الاخلاق إعادة الإيمان . كان القديس قد عمل بنجاح فى تقويم الأخلاق ، ولكنهم لم يعطوه

الوقت لكى يكمل ما بدأه جيداً . ولو لم يحملوا « نكتير » Nectaire خلفاً له ، لتمزى المؤمنون الحقيقيون على الأقل .

كان « نكتير » عضواً فى مجلس الشيوخ الرومانى ، وفى الوقت نفسه حاكماً لمدينة القسطنطينية . ولم يقتصر الأمر على أنه كان شخصاً مدنياً فحسب ، ولكنه أيضاً لم يكن قد تعمَّد بعد عندما شرعوا فى انتخابه ، وقد عاش فى عدم ضبط النفس واظهر عدم حكمته فى مناسبات عديدة . ويبدو أيضاً أنه لم تكن له موهبة الخطـــابه .

كان القديس اغريغوريوس قد ترك القسطنطينية قبل انتخاب « نكتير » Nectaire ، واختار نزينز مقراً له . ومنه ألَّف « قصيدة حياته » « le poéme de sa Vie » ، وفيها كان يؤكد بالأخص سلوكه فى القسطنطينية . وكان هدفه من ذلك هـــدم الافتراءات المختلفة التى كانوا ينشرونها ضده . ولقد عمل بكل قواه لكى يدير أسقفاً لمدينة نزينز ، ولكنه لم يستطع أن ينجح بسبب معارضة جزء من الاكليروس .

واضطرته حالته الصحية السيِّئة إلى أن ينسحب بعد قليل إلى « أريانز » Arianze . والمعتقد ان ذلك كان قبل نهاية عام ٣٨١ . لم يكن نادماً على شىء فى انفراده إلاَّ على غياب أصدقائه .

ومع انه كان حريصاً جداً فى مقالاته ، إلا أنه كان يأخذ على نفسه بأنه لم يسهر بما فيه الكفاية على ضبط لسانه . وحتى يعاقب نفسه على كل الكلمات الغير نافعة التى نطق بها ، صمت صمتاً مطلقاً طوال الأربعين المقدسة سنة ٣٨٢ .

نصائح القديس : وبالرغم من عيشته المنعزلة ، لم يكن يرفض الاتصال بالأشخاص الذين يحتاجون إلى الاستنارة . كان يعطى نصائح ممتازة لكل الذين يستشيرونه . وليس أحكم من قواعد السلوك التى وضعها بالنسبة للنساء المتزوجات فى مؤلفه الموجّه إلى القديسة « أولمبياد » Olympiade . ويقول ضمن أقوال أخرى :

« أولا أكرمى الله ، ثم احترمى زوجك كسيد لحياتك ، لأنه عليه أن يدبر أعمالك وكل سلوكك . لا تحيى سواه ، ليكن سرورك . وتعزينك بحيث لا تعطيه أبداً مجالا لأن يغضب منك . تنازلى له عندما يكون فى حالة غضب ، ساعديه وعزيه فى أحزانه وضيقاته كليه بوداعة كثيرة وبلطف : كونى متواضعة فى عتابك له ، واتخذى لذلك وقتاً مناسباً . أفعلى مثل الذين يريدون أن يروضوا الاسود ، بدلا من أن يستخدموا العنف إزاءها ، فإنهم يمدحونها ويلاطفونها . اشفقى على ضعفات زوجك ولا تلوميه أبداً بمرارة ، فإنه غير مسموح لك أن تفعلى ذلك

نحـــو ذلك الذى يلزمك ان تفضليه على كل ما فى العـــالم .

ويتمنى القديس أن تصير « أولمبياد » أمّاً لأولاد كثيرين وذلك لكى تكون هناك أرواحاً أكثر يسبحون الرب يسوع المسيح . وكانت إحدى القواعد التى يعلمها باهتمام أنه يلزم أن نبدأ وننهى كل عمل بأن نقدم لله صلاة قصيرة ، نقدم القلب وكل ما نعمله . أننا مدينون لله بكل ما نحن عليه وبكل ما نملك . أنه تعالى يقبل أصغر أعمالنا ويكافئنا عليها عندما يكون هو تعالى مبدأها ، أنه ينظر حينئذ ، ليس إلى القليل الذى نصنعه ، ولكن إلى المشاعر التى تحركنا . أنه لا يرفض القلب الذى يعطى فى حالة الفقر ، ما يملك وما يستطيع أن يعطيه ، معترفاً بفضل الرب وسلطانه عليه .

وكان كرسى نزينز لا يزال خالياً . وكما قلنا ، اضطر القديس اغريغوريوس إلى توليه بعد موت أبيه . وقد كلف « كليدونيوس » Clédonius بذلك أثناء غيابه . كان يتألم عندما يبصر المساوىء المختلفة التى على عاتق الأسقف وحده ليعالجها . وكانت له تحركات فعلا لإنتخاب أسقف : ولكنه لم ينجح . وضاعف جهاده فى سنة ٣٨٢ ، وحصلت أخيراً كنيسة نزينز على راع ، ووقع الاختيار على كاهن فاضل يدعى « أولاليوس » Eulalius .

قرر القديس أن يقضي بقية أيامه في عـــزلة في « أزينز » Azianze . وكان حينئذ متقدماً جداً في السن ، واشتدت به العلة، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يخدم أيضاً الكنيسة ، وبالأخص كنيسة نزينز . وكان له في اعتزاله حديقة ونافورة وغابة صغيرة فيتذوق طعم المتع البريئة في الريف، وهي الوحيدة التي كان يسمح لنفسه بها . هناك كان يمارس كل أنواع التقشفات الجسدية ، كان يصوم ويسهر كثيراً ، وكان يصلي كثيراً راكعاً . ولنسمعه هو نفسه يتحدث :

« اني أعيش وسط الصخور والوحوش الضارية . اني لا أرى ناراً أبداً ، ولا استعمل حذاء . ثوبي بسيطة هي كل ملابسي، أنام فوق القش ، وليس لي سوى دثار خشن استعمله كغطاء . إن أرضي ترويها دائماً دموعي التي أسكبها » .

وفي العقد الأخير من نهاية حياته ، أخذ يؤلف قصائد حول بعض المواضيع التقوية لكي يساهم في تثقيف المؤمنين الذين يحبون الموسيقى والشعر . ومن جهة أخرى كان الابوليناريون قد ألفوا قصائد لكي ينشروا ضلالاتهم ، فكانت أبسط وسيلة لمحاربتهم هي مواجهتهم بقصائد أخرى أرثوذكسية ، تحدى تلاوتها في التعليم والتثقيف ، وفي نفس الوقت تريح النفس .

وفي هذه القصائد يروي القديس اغريغوريوس سيرة حياته وآلامه ، ويبشر فيها تجاربه وضعفاته وأخطاءه ، وفي هذا المجال يدخل في التفاصيل أكثر مما كان يفعل حينما يكون في الموضوع تشريعاً له . وفيها يشكو بالرغم من شيخوخته ولسكه أنه ما زال يختبر ثورات الجسد الفاسد ، ولكنه يعترف في نفس الوقت أن النعمة قد حفظت فيه كنز البتولية الثمين . كانت تلك التجارب تطرأ أحياناً بفعل الرحمة الإلهية : فكانت تحميه ضد غـــرور الكبرياء فيظل ساهراً ، إذ تذكره بدون انقطاع ضرورة الجهاد. وتلك القصائد مملوءة أيضاً باشتياقه المتوقد بالتمس فيه معونة الرب يسوع المسيح وفيها يعلن أننا في تبعية مطلقة للخلاص . يقول .

« بدون نعمة لا تكون سوى عبيد تفوح منهم رائحة الخطية، ولا يمكننا أيضاً أن نصنع خيراً ، كما أن العصفور لا يستطيع أن يطير بدون أجنحة ، وكما لا تستطيع السمكة أن تسبح بدون الماء . الله هو الذي يجعلنا نبصر ونتصرف ونجري » .

وكان القديس لا يكتفي بالسهر والصلاة ، بل كان يبتعد عن كل ما يمكن أن تكون له علاقة ما بالخطية ، ويجتهد في أن يستعبد جسده بتقشفات مستمرة .

وفي رسائله كان يعطي نصائح ممتازة ، ولا يوصي بأي شيء

لايقوم به هو نفسه . وإنا نقدم لذلك مثلا . كان كاهن قديس مضطهداً عن ظلم بسبب وشاية ، فكتب له ثلاثة رسائل ليعزيه. وخاطبه هكذا فى الرسالة الثالثة :

« ماذا يمكن على أية حال أن يحدث لنا من شر ؟ ليس لنا أن نخاف إلا من شيء واحد ، وهو أن نضع أنفسنا بغلطتنا فى موقف نفقد فيه الله والفضيلة . فلنترك الأمور الأخرى تسير كما يحب لنا الرب : فهو سيد حياتنا ، يعرف علة كل ما يحدث ، ولنخف فقط من أن نتصرف بأسلوب غير لائق ببرنا ، أطعمنا الفقراء ، وخدمنا إخوتنا ، ورتلنا المزامير لمجد الله ، فإن لم يكن مسموحاً لنا بعد أن نستمر فى نفس التدريبات ، فلنجتهد فى شيء آخر . ان النعمة ليست عقيمة ، انها تفتح طرقاً مختلفة تؤدى جميعها إلى السماء . فلنحيَ فى اعتكاف ، ولنباشر التأمل ، ولنطهر أرواحنا بنور الله : ان ذلك ليس أقل رفعة من كل ما نستطيع أن نفعله » .

هذه كانت مشاغل القديس اغريغوريوس فى عزلته الأخيرة ، إلى أن حان موعد نياحته الطوباوية حوالى سنة ٣٨٩ ، وانتهت حياته كمعلم وأسقف وراهب وشاعر .

وفى سنة ٩٥٠ أمر الامبراطور قسطنطين بورفيروجينيت Porphyrogénète بنقل رفات القديس من نزينز إلى القسطنطينية

ووضعها فى كنيسة الرسل . وقد نقلت إلى روما فى زمن الحروب الصليبية ولا تزال هناك تحت إحدى هياكل كنيسة الفاتيكان . ويعيِّد له اللاتين فى ٩ مايو . أما الشرقيون فيعيدون له فى يومى ٢٥ و ٣٠ يناير .

مؤلفات القديس : وكانت مؤلفاته خمسة وأربعين مقالا ، ومائتين واثنى عشرة رسالة ، ووصية ، وله ثمان وسبعون قصيدة لاهوتية ، وسبع وتسعون قصيدة تاريخية تمثل شخصيته ، ومائتان وواحد وثلاثون قصيدة يتناول فيها الشخصيات الأخرى ، وله مائة وتسع وعشرون عبارة مكتوبة على القبور ، وتسع وتسعون عبارة مدونة على النصب التذكارية .

† † †

(٢)

القديس أغريغوريوس الثغماطرغوس

أسقف قيصرية الجديدة

(المعروف بصانع العجائب)

مترجم من الجزء الحادى عشر من مجموعة :

Vies des Saints et des Bienheureux
R. P. Bénédictins

القديس اغريغوريوس صانع العجائب

نشأة القديس واعتناقه المسيحية : ولد سنة ٢١٣ . وكان اسمه تيودوروس، ولم يدع باسم أغريغوريوس إلا عند رسامته اسقفاً . وكلمة اغريغوريوس تفيد نفس معنى كلمة اسقف ، أى الذى يسهر على ... ، المراقب . كان له أخ يدعى « أثنودور » Athénodore ، وهو زميله المخلص فى حياته كلها ، وصار مثله أسقفاً على مدينة البنط Le Pont . وكانت له أخت متزوجة من أحد رجال القانون . كان والداه وثنيين غنيين ، وربيا أولادهما تربية حسنة . وكان عمر أغريغوريوس أربعة عشر سنة عندما مات والده .

عرف المسيحية وبعد بعض التردد اعتنق الديانة الجديدة ، ولكننا لا نعرف بالضبط تاريخ عماده . لم يكن يفكر فى بادىء الأمر فى تغيير مجرى حياته ، واستجاب لذلك بسبب إلحاح والدته فاهتم بدراسة القانون . ولم يكن ذلك على سبيل قتل الوقت ، بل أنه تعلم اللغة اللاتينية لكى يقرأ مؤلفات أصحاب الرأى من الرومان ، وكان يظن أن اقامته بعض الوقت فى مدرسة بيروت الشهيرة تكمل معارفه .

وسنحت الفرصة للسفر. فقد عين أحد أقاربه قاضياً مساعداً لحاكم فلسطين، فأرسل يستدعي زوجته التي كانت تعيش في قيصرية الجديدة Néocésarée. وصحبها اغريغوريوس وأتيودور وكانا يظنان أنه من السهل عليهما الوصول إلى بيروت.

لقاء مع اوريجانوس: وعندما وصلا إلى قيصرية في فلسطين، تقابلا مع أوريجانوس الذي كان قد وصلها ليستوطن فيها بعد أن أرغم على ترك الاسكندرية. وعرف المعلم فوراً قيمة هذين الشابين، وسرعان ما سادت الثقة بينهم، ولمدة خمس سنوات وربما ثمان، اجتهد أوريجانوس في تعليمهما. وقبل ان يسافر أغريغوريوس، وجه إلى معلمه خطاب وداع وشكر، ويُعدّ مديحاً في غير تحفظ، وقد ذكر فيه بعض التفاصيل الملموسة العديدة لكي يعطي عن معلمه صورة واضحة محببة.

الله يتمجد في قديسيه: وفي الاسكندرية حسده بعض الشبان على اجتهاده وطهارته، فاستأجروا امرأة عاهرة لتتهمه وسط الاجتماع بأنه لم يدفع لها أجر خدماتها المشينة له. فأراد الحاضرون أن يطردوها، ولكن القديس تدخل وأعطاها ما تريد. فلما أخذت التعسة النقود، اعتراها روح نجس، فاخذت تتلوّى

على الأرض وهي تصرخ، ولم تخلص إلا بصلاة ذلك الذي حاولت ان تتهمه زوراً.

رسامته اسقفاً: وعاد أغريغوريوس إلى بلده لكي يحيا حياة التوحّد، يترك كل نشاط دنيوي. ولكن «فيديم» Phédime أسقف «أمازيه» Amasée، علم باعلان سماوي انه يستحق رتبة الاسقفية. وإذ كان أغريغوريوس يتحاشى هذا التكريم. كان يهرب من بريّة إلى أخرى، مما إضطر الاسقف «فيديم» أن يرسمه غيابياً على ابيارشية قيصرية الجديدة. وإذ كان القديس أغريغوريوس على مسيرة ثلاثة أيام، رأى هذا المشهد في رؤيا ففهم انه لم يعد أمامه سوى الطاعة.

ظهور السيدة العذراء والقديس يوحنا البشير له: ولما صار أسقفاً لم يشأ أن يبشر قبل أن تعلن له الحقيقة بواسطة رؤيا، إذ كان البعض يفسدون التعليم بمناقشات ضارة. وأثناء الليل ظهرت له السيدة العذراء القديسة مريم ومعها القديس يوحنا البشير، ودعته ليشرح لأغريغوريوس ما كان يبحث عنه. فأطاع وبعد هذا الظهور الأول للسيدة العذراء.

† † †

ذكر بعض معجزاته

ويلزمنا أن نأتى بملخص لبعض العجائب التى أكسبته اسم صانع العجائب :

(١) ايمان كاهن هيكل الاوثان : عندما كان فى طريقه إلى قيصرية الجديدة ، فاجأه مطول المطر ، فاضطر إلى الالتجاء إلى أحد الهياكل ، وقضى الليل فيه مصلياً بعد أن رشم علامة الصليب. وفى صباح اليوم التالى ، قدم الكاهن الوثنى الذبائح ، ولكن الشياطين لم يردّوا عليه كعادتهم : فقد طردهم حضور القديس . فعنّاط الكاهن وهدده بالشكوى إلى القضاة. فكتب أغريغوريوس على ورقة صغيرة ووضعها على المذبح : « من أغريغوريوس إلى إبليس ، أدخل أعطيها للكاهن » ، وفى الحال أتت أثرها فى الأرواح النجسة كما هى عادتها . وعندما رأى الكاهن قوة القديس ، طلب منه أن يعلمه . وسار كل شىء على ما يرام إلى أن علم القديس أن الله قد تأنس . روى انه لكى يؤمن بمثل هذا العجب ، طالب بمعجزة جديدة وهى أن ينتقل الحجر الكبير دون أن يقوم بنقله أحد . وقبل أن حدثت المعجزة حالا ، وترك الكاهن كل شىء ، بما فى ذلك زوجته وأولاده ليتبع الاسقف القديس . ورسمه الاسقف شماساً .

وذاع خبر هذه المعجزات حتى حضر إليه جمع كبير يحتفون به . ومن بينهم دون أن يقول شيئاً ، فأدهش تصرفه الناس واتعظوا كثيراً ، وقبل من أحد الأهالى ويدعى موسونيوس Musonius أن يستضيفه ، ونجحت مواعظه نجاحا كبيراً ، وشرع فى بناء كنيسة .

(٢) جفاف البركة موضوع النزاع : كان يحاول صنع السلام بين المسيحيين الجدد . وحدث أن تنازع أخوان على ملكية بركة ، فكان كل واحد يريد أن يأخذها كلها لنفسه ، وحاول اغريغوريوس أن يحسم النزاع ، ولكن بلا جدوى : فقد قرروا المبارزة . فسبقهما الاسقف إلى البركة وظل يصلى طوال الليل ، وقيل أن البركة جفت فى الصباح .

(٣) انحسار مياة الفيضان : كان نهر « ليكوس » Lykos يهدم كل شىء أثناء فيضانه . فحضر القديس اغريغوريوس فى مكان ما على الضفة المهددة بالانهيار وزرع عصا إلى نهايتها فى الأرض الرطبة . وقد صارت شجرة كبيرة ، ومنذ ذلك الحين كانت هذه الشجرة حداً أثناء المياة العالية ، كأنما كان النهر يرجع دونها . وآمن كثيرون .

(٤) الصخرة تحدد بناء الكنيسة : كان الشعب يريد بناء

كنيسة فى إحدى القرى ، وكانت هناك صخرة ضخمة تحمل مكان بناء الكنيسة غير ممكن استخدامه. فطلب القديس اغريغوريوس أن تتنحى جانباً، لأنه كان واثقاً فى وعد الرب الذى كان قد وعد تلاميذه أنه إذا كان لهم إيمان يمكنهم أن ينقلوا الجبال .

(٥) عقاب المستهزئين : طلب منه أحد اليهود بعض المال لكى يدفن زميـــله . وكان الوسيطان يمثلان دوراً لكى يستهزئوا بالقديس ويبتزوا منه صدقة. فألقى القديس اغريغوريوس رداءه على الذى قيل أنه مات فمات فى الحال .

وأثناء اضطهاد « داكيوس » Déce سنة ٢٥٠ ، اختبأ القديس اغريغوريوس ، كما فعل أيضاً قديسون آخرون كثيرون مثل القديس فيريانوس من القرطاج ، وديونيسيوس الاسكندرى ويُروى أن رجال البوليس بحثوا عنه ، وعرفوا مكانه، ولكنهم لم يتبينوا إلا شجرتين بدلا من الاسقف القديس وشماسه .

ادارته وحزمه : كان حكيماً فى إدارته لابرشيته . فبعد اضطهاد داكيوس ، رأى الشعب متعلقاً بعبادة الاوثان حباً فى اللذات ، فأراد قبل كل شىء أن يعالج المسألة جذرياً فيصرفهم عن الخزعبلات ويقتادهم إلى الله . وسمح لهم بأن يحتفلوا بذكرى الشهداء فى مرح وتهليل . فقد كان يعرف أنه مع مرور الزمن

سوف تصبح حياتهم أكثر جدية ونظاماً بفعل الإيمان ، وهذا ما حدث بالفعل.السكثيرين : تغير موقفهم ، وتركوا الاهتمامات الجسدية إلى متعة الروح .

وحضر القديس اغريغوريوس صانع العجائب المجمع الاول الذى اجتمع فى أنطاكية للحكم على سلوك بولس الساموساطى سنة ٢٦٤ . وكان من أقدم الاساقفة . ولم يحضر المجمع الثانى سنة ٢٦٩ . ولا يرجح ذلك انه كان قد تنيح فى ذلك الوقت .

وقبل نياحته ، زار ابيارشيته ولاحظ آسفاً انه لا يزال بها سبعة عشر وثنياً ، ولكنه قدم الشكر للرب متذكراً انه لم يكن هناك سوى سبعة عشر مؤمناً عند حضوره . وتنيح فى سنه ٢٧٠. ودفن فى الكنيسة التى بناها فى قيصرية الجديدة .

† † †

(٣)

المعترف القديس أغريغوريوس الأرمنى

مصادر الكتاب :

(1) The Saints of Egypt, by O' Leary.
(2) Les Petits Bollandistes Vies des Saints.

القديس اغريغوريوس الأرمنى

وُجدت بعض التقاليد المسيحية فى أرمنيا أيام العصر الرسولى، ولكنها ليست سليمة تماماً. لذلك يلزمنا أن نعتبر بداية المسيحية فى أرمنيا فى أيام القديس اغريغوريوس ، وهو أول من بشّر بالإنجيل فى أرمنيا بعد برثلماوس الرسول .

ولد القديس اغريغوريوس الأرمنى حوالى سنة ٢٥٧ فى « فالارشاباد » Valarshabad عاصمة اقليم أرارات وكان ابوه يدعى « أناش » Anach وهو من عائلة ملكية هى عائلة بارثيان، Parthian Arsacids . وقد اغتال كسرى (ملك أرمنيا ٢١٢ - ٢٥٨) Khusraw أو Chosroès ، فى سنة ٢٢٨ بتحريض من مغتصب العرش « اردشيس ساسان » Ardachés Sassan أو الملك شابور الأول Shapur .

وهرب « أناش » إلى مدينة قيصرية فى كبادوكية وحمل معه طفله اغريغوريوس ، وهناك عمده ورباه فى الديانة المسيحية .

ولما حان الوقت تزوج اغريغوريوس بسيدة من عائلة شريفة تدعى مريم ، وكانت تقية جداً. وولدت له ولدين هما « فرتانس » Vertanes ، و « ارستاجس » Aristages . وبعد ثلاث سنوات

اتفق اغريغوريوس وزوجته مريم على أن يفترقا لكى يعيشا حياة النسك الشديد[1].

وكان « تيريدات » Tiridate الثالث ابن كسرى القتيل مختبئاً فى قيصرية الكبادوك . وإذ علم اغريغوريوس بالجريمة التى ارتكبها أبوه ، سلم نفسه إلى تيريدات وصار خادماً خاصاً له .

وفى سنة ٢٨٤ حصل « تيريدات » على تاج أرمنيا الملكى بمساعدة الامبراطور الرومانى دقلديانوس ، وذهب إلى أرمنيا واصطحب معه اغريغوريوس ، وكان ينزله من نفسه منزلة كبرى .

وشارك الملك تيريدات فى آراء دقلديانوس الوثنية ، وأراد أن يرغم القديس اغريغوريوس على عبادة الأوثان والتبخير « لاناهيد » Anabid كبيرة آلهة الأرمن . فرفض القديس واعترف جهراً بأنه مسيحى . فتضايق الملك لذلك جداً ، وأمر بتعذيبه بأنواع كثيرة من العذابات . وألقاه فى زنزانة ضيقة جداً ، ثم عصب عينيه ، وعلقه بحبل مشدود على صدره بعنف . وظل القديس الشهيد على هذه الحالة لمدة سبعة أيام . ومرة أخرى علقه من قدمه منكس الرأس ، وفرش الأرض بسباخ حتى يتنفس القديس رائحته الكريهة ، بينما كانوا يضربونه بعصى مبللة .

(١) يروى ذلك O'Leary دون غيره .

وأثناء هذا التعذيب كان القديس اغريغوريوس يصلى إلى الله من أجل خلاص كل الشعوب ، وبالأخص من أجل خلاص الأرمن . وكان الملك يتعجب من شجاعته ويضاعف قسوته فى تعذيبه . فأحضر ألواحاً وحبالا معقودة ، وأمر بضغط أقدام القديس حتى سال الدم من أطرافه ولطموه كثيراً بعنف ، ووضعوا رأسه فى منجلة وضغطوا عليه ، ثم ملأوا أنفه بالخل والملح . وتحمل القديس كل هذه العذابات حتى دهش الملك كيف كان يظل حياً . وأمر تيريدات بإلقاء القديس فى بئر مليئة بالزواحف وتركه فيها عدة سنوات ، وكانت امرأة مسيحية تدعى حنة Anna تحضر له الطعام طوال مدة بقائه فى البئر .

وعلم تيريدات أن اغريغوريوس هو ابن « اناش » قاتل كسرى الملك . فاستشاط غضباً وأمر بنقل القديس إلى « ارتكسات » Artaxat ، وهى إحدى القلاع الموجودة فى مقاطعة أرارات ، مقيد اليدين والرجلين وفى عنقه حبل ، وهناك ألقاه فى فتحة ضخمة مصمماً أن يتركه حتى يموت فيها . ولكن الله نجاه من الهلاك كما نجاه من كل العذابات الأخرى .

القديسة ربسيما: وكان فى ذلك الزمان قديسة تدعى ربسيما Repsima وكانت رئيسة لإحدى الجاليات الدينية فى روما . وكان الامبراطور دقلديانوس يحبها ويحاول اغرامها ، فهربت مع

اتفق اغريغوريوس وزوجته مريم على أن يفترقا لكى يعيشا حياة النسك الشديد[1].

وكان « تيريدات » Tiridate الثالث ابن كسرى القتيل مختبئاً فى قيصرية الكبادوك . وإذ علم اغريغوريوس بالجريمة التى ارتكبها أبوه ، سلم نفسه إلى تيريدات وصار خادماً خاصاً له .

وفى سنة ٢٨٤ حصل تيريدات على تاج أرمنيا الملكى بمساعدة الامبراطور الرومانى دقلديانوس، وذهب إلى أرمنيا واصطحب معه اغريغوريوس ، وكان ينزله من نفسه منزلة كبرى .

وشارك الملك تيريدات فى آراء دقلديانوس الوثنية ، وأراد أن يرغم القديس اغريغوريوس على عبادة الأوثان والتبخير «لاناهيد » Anabid كبيرة آلهة الارمن. فرفض القديس واعترف جهراً بأنه مسيحى. فتضايق الملك لذلك جداً، وأمر بتعذيبه بأنواع كثيرة من العذابات . وألقاه فى زنزانة ضيقة جداً ، ثم عصب عينيه ، وعلقه بحبل مشدود على صدره بعنف . وظل القديس الشهيد على هذه الحالة لمدة سبعة أيام . ومرة أخرى علقه من قدمه منكس الرأس ، وفرش الأرض بسباخ حتى يتنفس القديس رائحته الكريهة ، بينما كانوا يضربونه بعصى مبللة .

(١) يروى ذلك O'Leary دون غيره .

وأثناء هذا التعذيب كان القديس اغريغوريوس يصلى إلى الله من أجل خلاص كل الشعوب ، وبالأخص من أجل خلاص الارمن وكان الملك يتعجب من شجاعته ويضاعف قسوته فى تعذيبه. فأحضر ألواحاً وحبالا معقودة ، وأمر بضغط أقدام القديس حتى سال الدم من أطرافه ولطموه كثيراً بعنف، ووضعوا رأسه فى منجلة وضغطوا عليه ، ثم ملأوا أنفه بالخل والملح . وتحمل القديس كل هذه العذابات حتى دهش الملك كيف كان يظل حياً. وأمر تيريدات بإلقاء القديس فى بئر مليئة بالزواحف وتركه فيها عدة سنوات ، وكانت امرأة مسيحية تدعى حنة Anna تحضر له الطعام طوال مدة بقائه فى البئر .

وعلم تيريدات أن اغريغوريوس هو ابن « اناش » قاتل كسرى الملك. فاستشاط غضباً وأمر بنقل القديس إلى « ارتكسات » Artaxat ، وهى إحدى القلاع الموجودة فى مقاطعة أرارات ، مقيد اليدين والرجلين وفى عنقه حبل، وهناك ألقاه فى فتحة ضخمة مصمماً أن يتركه حتى يموت فيها . ولكن الله نجاه من الهلاك كما نجاه من كل العذابات الأخرى .

القديسة ربسيما: وكان فى ذلك الزمان قديسة تدعى ربسيما Repsima وكانت رئيسة لإحدى الجاليات الدينية فى روما. وكان الامبراطور دقلديانوس يحبها ويحاول اغراءها ، فهربت مع

(٤)

القديس أغريغوريوس أسقف نيصا

مترجم من الجزء الثالث من مجموعة :

Les Petits Bollandistes
Vies des Saints

ولد هذا المعلّم البارز بين معلّمي الكنيسة حوالى سنة ٣٣١ في سبسطه [1] Sébaste في كبادوكية في عائلة قديسين . فأخته القديسة ماكرينا Macrine ، وأخوه القديس باسيليوس الكبير، وهما يكبرانه ، وقد ساهما في تربيته مثل ما فعل أبواه . وحالما سمح سنّه ، درس العلوم البشرية . ويقول المؤرخ تيودوريه Théodoret أنه قضى بعض الوقت في الحياة الرهبانية ، ولكنه لم يترهب . بل ارتبط أيضاً بالعالم بزواجه . وقد ندم على ذلك فيما بعد في كتابه عن البتولية ، كان بيّن لأنه لم ينتفع هو نفسه بما يقوله في هذه الفضيلة ، ويبكي عدم انتهاز الفضل الذي عرف قدره بعد فوات الأوان . ومع ذلك فقد كانت زوجته إمرأة فاضلة شاركته فضيلته . وإذ كانا يعيشان بأسلوب يتفق مع الإنجيل ، كانا قريبين من السكمال الذي حازه أفراد عائلتهما الذين كانوا يخدمون الله في البتولية . وبعد بعض الوقت لا يحدده التاريخ ، دخل أغريغوريوس في الحياة الكنسية ورسم قارئاً . ولكن إغراء الطموح ، أو انه أخذ بجمال الآداب العالمية ، مما جعله

(١) وهي « سيفاس » Sivas الحالية مدينة في تركيا على نهر « كزل ارمك » Kizil Irmak

يتوقف عن قراءة الكتب المقدسة للمؤمنين ، لكي يعلّم البلاغة للشباب . وكانت هذه عثرة بين المسيحيين ، فكانوا يرون فى هذا السلوك ضرباً من الانصراف عن الحياة الكنسية وخطراً كبيراً لمن يشرع فيه. وأرسل له صديقه القديس أغريغوريوس النزينزى خطاباً فى هذا الموضوع يؤنّبه فيه بشدة وبمحبة كثيرة فى نفس الوقت . ويبدو ان هذا التأنيب قد أثر فى قديسنا . ومن المؤكد على أى حال انه لم يظل مدرساً لمدة طويلة . وبعد ان اندمج فى سلك الحياة الكنسية ، رفع إلى درجة الكهنوت . وبعد بضعة سنوات فقد زوجته ، وقد رثاها القديس أغريغوريوس النزينزى رثاءً رائعاً ، قال .

« لقد كانت زينة الكنيسة ، ودعاها شخصاً مقدساً ، وزوجة جديرة لأحد الكهنة على مستوى زوجها فى الشرف وفى الكرامة ، وجديرة بأسرار عظيمة . وقد جعلت هذه الكلمات الكثيرين يعتقدون انها انفصلت بارادتها عن زوجها عندما رسم كاهناً ، وتشرفت بوظيفة الشماسية [1] .

(١) كانت من قوانين الكنيسة فى ذلك الزمان أن الشماسة ، والكهنة والأساقفة الذين لم يتزوجوا قبل رسامتهم ، يلزمهم أن يظلوا بتوليين. ومن كانوا متزوجين يلزم أن ينفصلوا عن زوجتهم باتفاق متبادل ، حتى يدخلوا فى الكهنوت . وحسب القديس أغريغوريوس النزينزى ، =

وبعد أن تولى القديس باسيليوس الكبير عرش قيصرية عاصمة كبادوكية فى سنة ٣٧٠ ، فكر فى استخدام مواهب القديس أغريغوريوس العظيمة فى الخدمة العامة فى الكنيسة . وإذ خلى عرش « نيصا » Nyssa [1] ، إحدى مدن كبادوكية على مسافة ثلاثين ميلا من قيصرية [2] من ناحية « جلاتيه » Galatie ، شغله بأخيه بعد ستة أو سبعة شهور . وعندما أخبر أوسابيوس الساموساطى بهذا الاختيار قال :

« كنت أتمنى لو أن أخى أغريغوريوس بحكم كنيسة تناسب استحقاقه وكفاءته ، أى كل الكنيسة التى تحت الشمس . ولكن بما أن ذلك ليس ممكناً ، لزم أن نكتفى بأن يشرف اغريغوريوس المكان الذى يكون فيه أسقفاً . ان العظمة الحقيقية ليست أن يستطيع الانسان أن يعمل أعمالا عظيمة حسب ، بل أن يستطيع أن يُظهر الأعمال الصغيرة كأنها أعمال كبيرة » .

= كانت ضرورة البتولية قد أصبحت عقيدة منتشرة لدرجة أنه ما كان أحد يقبل الأسرار المقدسة من يد كاهن متزوج . وقد رفض « سينيسيوس » Synesius أسقفية « بطولمايس » Ptolémais أولا ، لأنه لم يكن يستطيع أن يقبل الأسقفية مع الامتناع كلية عن كل علاقة مع زوجته .

(١) Nyssa أو Nysse مدينة صغيرة قديمة من مدن كبادوكية (أو آسيا الصغرى ، وهى تركيا حالياً) ، على نهر « الهاليس » Halys

(٢) وتدعى أيضاً « مازاكا » Mazaka وهى أم مدن كبادوكية .

لم يكن قديسنا يشارك هذه المشاعر حول استحقاقاته ، وكان يظن نفسه أقل بكثير من كرامة الأسقفية ومن مسئوليتها ، ولزم أن يتشدد أساقفة المقـــاطعة لكى يرغموه على قبول رسامته . وسرعان ما أثبت سلوك هذا الأسقف القديس حسن اختيارهم . كان يمارس الفقر بنفسه لكى يُغنى الفقراء ، ولقد خصص لهم ميراثه . كان غيوراً محباً حريصاً ، لم يمنعه علمه العميق أن يضع نفسه فيلسوفاً طلب كل أحـــد . وكان يسهر على حفظ القوانين بشدة أكثر من أخيه أيضاً . لم يحارب الضلال بهمَّة أقل من تلك التى حارب بها الرذيلة ، وما كان يوقف حماسه كأسقف أى اعتبار بشرى . كان معلماً يخدم الكنيسة الجامعة بقلبه ، وأسقفاً يعمل بكل قواه بالقدوة وبالوعظ من أجل خـــير كنيسة « نيصا » Nysse .

وأثار ذلك حفيظة الأريوسيين . فوشا به هؤلاء الهراطقة لدى « ديموستين » Démosthène حاكم « البنط » Pont عدو المؤمنين كدأب معلمه الإمبراطور . فأرسل ديموستين جنوداً للقبض عليه وسلّم القديس نفسه أولا دون مقاومة ليقبضوا عليه. ولكنه عندما رأى أنهم لا يريدون منحه أى تخفيف بالرغم من سوء حالته الصحية وقسوة البرد، حينئذ هرب من أيدى الجنود.

وعبثاً حاول القديس باسيليوس فى خطاب بلهجة الاحترام ، ان يحمل ديموستين على اللطف ، شارحاً له بالنيابة عن كل أساقفة كبادوكية ، براءة أخيه .

كان المجمع المكلف بالحـــكم عليه فى « نيصا » يتكون من الاريوسيين فقط . وليس الاضطهاد الذى عاناه هو الذى آلم قديسنا ، بل إن تقدم الهرطقة ، والمصير الحزين المتوقع لرعيته التى يحكمها دخيل عديم الإيمان ، لا أخلاق له وغير كفء ، لأشد ايلاما . وكتب بذلك إلى القديس أغريغوريوس النزينزى ، فرد عليه بأن يضع ثقته فى الله ، مؤملاً ألاَّ ينتصر الضلال على الحق طويلا . وقد تحققت هذه النبوة فى سنة ٣٧٨ عند وفاة الامبراطور فالنس Valins . فقد أرجع « جراسيان » Gratien خليفته ، الأساقفة المنفيين وأعاد إليهم كنائسهم . ولم يكن منفى القديس أغريغوريوس ضياعاً بالنسبة للكنيسة ، بل كان أجمل وقت فى حياته ، لأن الكنائس التى كانت فى الأماكن التى عُرف أنه سوف يمر بها ، دعته لتنظيمها ولبرفرف السلام عليها . وقال القديس اغريغوريوس النزينزى أن هذا التغيير المستمر فى المكان جعله كالشمس، تجلب الدفء والنور والخصب فى كل مكان دون أن تتوقف إطلاقاً فى مكانها .

فقد رجع القديس لكرسيه، ولم يكد يتذوق الفرحة برؤيته شعبه من جديد ، حتى دُعى إلى قيصرية بسبب وفاة أخيه القديس باسيليوس الذى كان ينظر إليه دائماً كمنبراس. وكانت الخواطر الدينية وحدها هى الكفيلة بأن تعطيه القوة التى بها يستطيع أن يتحمل فقد شخص عزيز بهذا المقدار فى الوقت الذى كان فيه السلام الذى أعيد إلى الكنيسة يسمح بأن يراسله ويراه بأكثر حرية . (سنة ٣٧٩) .

واضطر فى نفس السنة أن يذهب إلى انطاكية حيث كان البطريرك القديس ميليس يعقد مجمعاً . وفى هذا المجمع أخذ القديس اغريغوريوس (من نيصا) على عاتقه مهمة زيارة بلاد العرب وفلسطين لكى يصلح الكنائس فيها. ولكنه لم يقم بهذه الزيارات إلا فى السنة التالية أى فى سنة ٣٨٠ . وعند خروجه من المجمع رجع إلى «نيصا» Nysse وذهب لزيارة شقيقته القديسة «ماكرين» Ste Macrine التى لم يكن قد رآها منذ ثمانى سنوات . وكان فى حاجة إلى تبادل العزاء فى وفاة القديس باسيليوس أخيهما، ولكنه وجد داعياً للألم من جديد ، فعندما اقترب من الدير الذى كانت ترأسه القديسة « ماكرين » ، علم أنها مريضة . واستقبله الرهبان الذين كانوا يعيشون فى نفس المكان تحت رعاية القديس بطرس

أخيه ، كعادتهم ، أما العذارى فانتظرنه فى الكنيسة . وبعد الصلاة احنين رؤوسهن لكى يأخذن بركته ثم انسحبن فى وداعة دون أن تبقى منهن واحدة ، حيث كن محجبات ، وإذ عرف أن شقيقته لم تكن ضمنهن ذهب لرؤيتها فى غرفتها ، فوجدها ترقد على الأرض فوق لوح من الخشب ، وكانت متجهة نحو الشرق حتى تستطيع أن تصلى . ودار بينهما حديث حول القديس باسيليوس وحول المتاعب التى لاقاها القديس اغريغوريوس فى عهد الامبراطور فالنس .

وهنا يروى المؤلف تفاصيل هذا اللقاء ثم يبين كيف أسلمت القديسة « ماكرين » الروح ، ويصف تفاصيل تجهيزها ودفنها ثم يقول :

وبعد أن قام القديس اغريغوريوس بما يلزم نحو شقيقته ، عاد إلى نيصا فى نهاية سنة ٣٧٩ . وسكت هناك إلى أن تحسن الجو ليتمكن من زيارة بلاد العرب وفلسطين . وخوّل له الامبراطور حق استعمال العربات الرسمية فى الرحلة . ووضعوا عربة تحت تصرفه، كان يستخدمها مع رفقائه كما تستخدم الكنيسة أو الدير، يرتلون فيها المزامير أثناء الطريق وهم ملازمون الاصوام .

وزار بلاد العرب ثم بيت لحم والجلجثة وجبل الزيتون والقبر

المقدس ، حتى يشبع ميوله للتقوى . ولكنه وجد هناك فوضى وفساداً كثيراً بين أهالى هذا البلد ، لدرجة أنه أعتبر أن هذه الزيارة خطيرة، ولاسيما بالنسبة للنساء ولرجال الدين الذين تتعرض فيها فضيلتهم للخطر . وقد شرح ذلك فى مقال فى أسلوب رسالة، ولم يكن يعيب الزيارات اطلاقاً ،فقد قام بالزيارة هو نفسه، ولكنه أشار إلى أخطارها . ولم تكن أحوال الكنيسة فى حالة أفضل مما كان عليه الأهالى ، بالرغم من غيرة القديس كيرلس أسقف أورشليم. ولم يكن القديس اغريغوريوس أكثر نجاحاً فى اصلاح هذه الكنيسة، واضطر إلى الرجوع منها، دون أن يكون قد فعل شيئاً سوى زيادة جدرايته بصلاح نيته النبيلة ومجهوداته الشجاعة .

وفى السنة التالية ، سنة ٣٨١ ، حضر مجمع القسطنطينية الذى كان يتكون من أساقفة شرقيين فقط ، ولكنه صار مجمعاً مسكونياً لأن كل الكنيسة اتبعت قراراته . وفى سنة ٣٨٢ حضر مجمعاً آخر فى القسطنطينية حيث ألقى خطاباً رائعاً حول ألوهية الابن والروح القدس . وبعد ثلاث سنوات ، سنة ٣٨٥ ، إضطر إلى العودة إلى المدينة الامبراطورية ليمكث بها وقتاً طويلا . وهناك ألقى خطابين أحدهما فى رثاء الأميرة الشابة « بولشيرى » Pulchérie ابنة

الامبراطور تيودوسيوس ، والآخر فى رثاء الامبراطورة ، زوجة تيودوسيوس الأولى ووالدة « بولشيرى » .

وعندما رجع قديسنا إلى نيصا، لم يجد راحة بسبب «هيلاد» Hellade أسقف قيصرية الذى خلف القديس باسيليوس شقيقه ، وكان ذاك رجلا قلقاً مثيراً للقلاقل ، لا هم له إلا اضطهاد أهل سلفه القديس وأصدقائه وجلب التعب لهم . وبالرغم من صبر القديس اغريغوريوس وتواضعه، إضطر إلى أن يعهد إلى القديس « فلافيان » Flavien بطريرك أنطاكية بأمر العناية بحمايته من مهاجمة « هيلاد » له ظلماً وعدواناً .

وفى سنة ٣٩٤ حضر القديس اغريغوريوس مجمعاً آخر فى القسطنطينية من أجل تدشين كنيسة « روفان » . وجلس بين المطارنة، وقد منح هذا الامتياز الكبير نظراً لشخصيته واستحقاقه وكان كرسيه الأسقفى صغيراً . ولم يعرف بالضبط تاريخ نياحته، إلا أنه كان فيما بين سنة ٣٩٤ وسنة ٤٠٤ .

وله مؤلفات كثيرة جداً ترجمت إلى اللغات الأوربية .

+ + +